بقلم:
غسان كنفاني

شبح "الدولة" الفلسطينية

أين هو؟ ما هو؟ من سيقاومه؟ من يروّج له؟ وكيف يحدث ذلك؟

● "فلسطينستان": مشروع تخويفي يهدف الى انتزاع ولاء الجماهير لحركة المقاومة

● "الدولة الفلسطينية" اجراء مرتبط بمجمل الحل السلمي العربية ولا بدّ من محاربته عبر ذلك

هنالك ثلاثة انواع من « الدوله الفلسطينيه » يمكن للمراقب ان يميزها :

ـ اولا : « دولة » مشكلة من الضفه الغربيه وقطاع غزه ، بجري انشاؤها بحرض واشراف وهيمنه اسرائيل ، وهي في النتيجه جزء من عمليه الاستسلام الكامله للانتصار العسكري الاسرائيلي ، وهي ثمره من ثمار ذلك الانتصار، مهمها تحقيق وضع افضل للمنتصر عسكريا وسياسا واقتصاديا ، والتقدم درجه جديدة في تحقيق استراتيجية المنفوق .

ـ ثانيا : « دولة » مشكلة من الضفه الغربيه وقطاع غزة والضفة الشرقية ، بجري انشاؤها عن طريق « انقلاب » في عمان ، بزعم انه يمثل ارادة الشعب الفلسطيني ـ الاردني ، ولكن مثل هذا الانقلاب لا يمكن حدوثه الا بأذن وتحريض من اسرائيل والولايات المتحده وبريطانيا ، وهو بسهدف الوصول الى تصفيه اكثر جذريه للقضيه الفلسطينية كحركة تحرير ثوريه ، واخضاعها كليا ، ربما بواسطة بيروقراطيه عسكريه ، لهيمنة الحلف الاسرائيلي الامبريالي.

ـ ثالثا : « دولة » تفرضها ارادة النضال الفلسطيني والعربي المسلح فرضا ، وذلك فوق مناطق محررة في الضفة الغربية او في غيرها ، ولا يمكن حدوث ذلك على المدى المنظور الا عن طريق احداث تغير دراماتيكي في ميزان القوى العسكرية والسياسية مع العدو الاسرائيلي والعدو الرجعي والامبريالي، وليس من الضروري ان يتبلور شكل السلطة على تلك الاراضي المحررة « دولة » بالمعنى المعارف عليه ، ولكن اساس ذلك الوجود هو في قدرته على فرض نقطة انطلاق جديدة ، بقوة السلاح واستمرارية النضال وتخريب الواقع الراهن لميزان القوى ، وذلك لتصعيد الثورة والانتقال من مرحله الى مرحله اكثر تقدمها .

« الدولة » والأرض المحررة

ومن الواضح ان هذا الشكل الاخير « للدوله الفلسطينية » ليس هو الشكل الذي يجري الحديث عنه في هذه الفترة ، وهو في الواقع لا يمكن رؤيه في المدى المنظور خصوصا في « فترة الانحسار » التي يمر فيها النضال الفلسطيني والعربي في هذه المرحلة .

الا اننا حرصنا على تسجيلها هنا لسبب غاية في الاهمية ، اذ ان منطق دولة مثل هذه هو منطق مخالف ومناقض كليا لمنطق « الدولتين » اللتين جرى وصفهما في البند (1) والبند (2) ، ومع ذلك فان الكثيرين يرغبون في هذه الغيره بارتكاب الخطأ المحبب لديهم ، وهو اسقاره منطق البند (3) لتحليل البند (1) والبند (2) :

ففي حين ان « الدولة الفلسطينية » الموصوفه في البند (3) هي نقدم لحركة التحرر الوطني الفلسطيني والعربي بغرضه تعديل في ميزان القوى مع العدو لمصلحة الكفاح المسلح الفلسطيني والعربي، فان « الدولة الفلسطينية» الموصوفه في البند (1) وفي البند (2) هي حصيله لتراجع كبر في حركة التحرر الوطني الفلسطيني والعربي ، بفرضه احلال اساسي في ميزان القوى مع العدو ، بنامي لمصلحته ، وبفرض في النهاية الاستسلام لارادته .

ولذلك فانه من المخادعة استخدام تلك اللغه الفضفاضه التي تتحدث عن « الاستعداد » من الاستسلام للعدو ، هذه اللغه التي تلخص نفسها عادة بسؤال ساذج : « اليس من الافضل ان نطلق النار من طوكرم والخليل، بدلا من جرش وعمان ؟ » اذ ان هذا السؤال يستمر ظروف وتطورات وواقع البند (3) ليبرر الظروف والتطورات والوقائع المناقضه كلما في البند (1) وفي البند (2) .

من بريد « دولة فلسطينية »

ولكن قبل المضي في معالجه «خرائط» الدوله الفلسطينية ، لا بد من العوده قليلا الى الوراء، وملاحظه ما يلي :

لم يحدث في تاريخ القضيه الفلسطينة ان كان الحديث عن قرب انشاء دوله فلسطينيه يمثل هذا الشوع ، في وقت تشير فيه جميع الدلائل الى كمية غير عاديه من المصاعب والعراقيل تنتصب امام تحقيق مثل هذه الفكره :

ـ فاسرائيل فشلت خلال السنوات الماضيه ، والتي انقضت على الاحتلال منذ حزيران ١٩٦٧، في انشاء « قيادات وطنيه » فلسطينية ، او في تطوير زعامات سياسية في الاراضي المحتله.

ان طبقه « الكومبرادنج » التي تعاون مع العدو الاسرائيلي في الضفه الغربيه وفي غزه هي من اسوأ مثيلاتها في بواريخ الاحتلال ، ومن اكثرها انحطاطا من حيث تمثلها السياسي ، ولذلك فهي عاجزه عن المبالغه بادعاءاتها المضحكه ، وفي احسن حالاتها لا تستطيع ان تقدم ما هو اكثر من رئيس بلديه او محافظ ، وفي حاله من هذا النوع فان « دوله فلسطينيه » في الضفه الغربيه وغزه لا يمكن ان تكون مغايره في واقعها لما هو الحال الان تحت الاحتلال . ولا ريب ان ذلك لا يخدم المخططات الاسرائيليه والامبرياليه التي ترمي اليها من وراء شكل « دوله فلسطينيه » تمنح بالحد الادنى من المظاهر « الاستقلاله » والمضحكه .

ـ ومع ذلك فان اسرائيل غير مكترثه عمليا بدوله فلسطينيه لا تستطيع ان تلعب دورا ايجابيا لمصلحتها في السلل وفي الهيمنه على الواقع العربي ، ولذلك فان مثل هذه الدوله ، اذا لم تكن حاجزه على حد ادنى من القبول لدى الدول العربيه او بعضها (خصوصا الاردن) فانها لا تستطيع ان تخدم الاستعمار الاسرائيلي .

ومن الواضح ان دوله من هذا النوع هي ايضا منافيه لمصلحه النظام الاردني ، الذي استخدم كل وسائله القمعيه والدبلوماسيه للتعبير عن رفضه لمثل هذه الدوله التي ، دون هيمنته وسيطرته ، فانها تؤذي مصالحه وامتيازاته ، وتعرض وجوده ذاته للذوبان او الاضمحلال.

ولاسباب قريبه من هذه الاسباب لا تجد بقيه الانظمة العربيه ما يدفعها لقبول هذه الدولة .

ـ وحركه المقاومه ، الممثله الشرعيه لارادة شعب فلسطين ، ترفض بجميع فصائلها هذا الفخ الاستسلامي ، ولا ريب ان وجودها ذاته ، كحركة تحرير وطني ، موقوف على قدرتها على رفضه ومقاومه والمضي في كفاحها المسلح لنسف الميزان الراهن للقوى .

ـ ولا تجد الدول الكبرى في مثل هذه الدوله الصغيرة ، الاعمه ، المرفوضه من قبل جميع الاطراف تقريبا ما يغري بالعمل الجاد لانشائها، وذلك لا يعني بالطبع ان هذه الدول الكبرى لا تعير اهتماما للحاح « مشكلة الشعب الفلسطيني » ، او انها غير مكترثه بالنمو المتزايد لاهميه واولويه هذا الاشكال ، فذلك له جانب اخر من النقاش سنتطرق اليه فيما بعد .

ـ واسرائيل ذاتها ، في ميزان القوى القائم داخلها ، هي في محصله الاراء ضد التفريط حتى بذلك الحد الشكلي الادنى من واقع الاحتلال المباشر ، وهي لا تجد ما يرغمها على ذلك (لا في ميزان القوى المحلي ولا العالمي ولا فيما يتعلق بالضغوط الى شكلها ما يسمى بالراي العام العالمي) وما يبدو حتى الان هو ان « مشروع الون » القديم هو صاحب الرواج الاكبر داخل المؤسسه الحاكمه ، وهو مشروع ، في نهايه المطاف ، لا يرمي الى اكثر من تجريد الضفه الغربية من السلاح ، وانشاء سد من المستعمرات العسكريه على نهر الاردن ، و « اعادة » الضفه الغربيه لعمان من خلال اتفاقيه صلح وتعايش!

انشاء « فلسطينستان » ؟

اذن ما الذي يجعل الحديث عن « دولة فلسطينه » وشبكه الانشاء تجري بمثل هذه الحراره ، وليس شكل الحدث القادم بسرعة لا مثيل لها ، في حين ان تحليله يظهر مصاعب ليست الان اقل مما كانت في اي وقت مضى ؟

ان الاطار الموضوعي لفحص مسالة انشاء « فلسطينستان » (وهي السميه الاكثر منطقيه للدوله الفلسطينه المعمله والمصطنعه ، كما استخدمها الدكتور بيل شعب في محاضرة ألقاها مؤخرا في الكويت) هو التالي :

● ان تكون انشاء « فلسطينستان » هو احد نتائج استسلام شامل (بطلق عليه حاليا اسم الحل السلمي) ، وفي هذه الحال فهو جزء من صفقه كليه تكون حصيله ركوع سياسي عربي ، هو الثمن الذي لم يدفع بعد لهزيمه ٥ حزيران .

● او ان تكون انشاء « فلسطينستان » هو هدف غير معاجي، في بنيه النظام الاردني الحالي (عسكري او « اتحاديه » في العائله الهاشميه ... الخ) يزعم النظام الجديد بعد ذلك بانه ممثل للشعب الفلسطيني الاردني، وانه بطل ، ربما بعد سنوات منفرده مع العدو ، « الوطن الفلسطيني الاردني » او ما شابه ذلك .

لنفحص كلا من هذين الاحتمالين على حده :

● اولا : ان الاحتمال الاول ، الذي يتحدث عن انشاء « فلسطينستان » كجزء من صفقه اجماله هي الركوع السياسي الاستسلامي العربي للعدو ، يجب النظر اليه اذن من خلال رحلته الحل السلمي اجمالا ، هذه الرحله التي، وان كان من الصحيح انها قطعت في الاشهر الاخيره مسافه كبره الى الامام ، الا انه ليس من الموضوعي في شيء احصار المصاعب الحقيقه الكامنه امامها ، وربما الاستحالات المرحله في هذه الفتره ، وهو الامر الذي يجعل الحديث عن « قرب » انشاء دوله فلسطينة غير مبرر من الناحيه الموضوعيه .

المصطنعه الى تخلفها انقلاب عسكري في عمان لا يمكن حدوثه (طالما ان المعرض على صعيد الفكري والسياسي والعسكري الذي ترتبط بالطبقه الحاكمه الاردنيه منذ اصطناع الكيان الاردني وحتى الان .

● ثانيا : ان الاحتمال الثاني ، اي الدوله الون » ، ما يبدو حتى الان هو ان « مشروع هو في الاساس القوه الاسرائيلية والامبريالية الا في حاله ضمان هذه القوى لاستمرار الدور

وتكلمات اخرى فان احتمالا من هذا النوع ضرب جذورا عميقه تسبحه الدعم الامريكي لا يمكن ان يجري تطبيقه الا اذا ضمنت قوه الامبرياليه مع حلفائها اسرائيل وجود طبقه جديدة لها مظهر وطني من جهة ، ولكنها ترتبط اخرى لها نفس قوة الجذور الاجتماعيه والسياسيه والايديولوجية التي للطبقة الحاكمه الاردنية الراهنة ، بحيث تضمن استمرار الكيان الذي لعبه ويلعبه وسيظل يلعبه النظام الاردني العربق في عمالته .

وقد اثبت النظام الاردني في ايلول ١٩٧٠ وبعد ان الامبرياليين ، وعمليا فان الطبقه الرجعيات العربية واكثرها صلابة والرقا بحور الدم هو وهم ، خصوصا وان الخصوص التي ادتها هذه الرجعية الحاكمة للامبريالية منذ ١٩٣٦ ، مرورا بـ ١٩٤١ و ١٩٤٨ و ١٩٥٨ ثم في فترة الوحدة بين سوريا ومصر ومنذ ذاك وحتى ١٩٦٧ ، لا يمكن نسيانها .

وهكذا فان حسابات « الدولة الفلسطينية » في هذا السياق لا يمكن الاطمئنان اليها ، وان كان صحيحا ان اساطنة النظام الاردني يتعاملون في الادلاء بتصريحات عن رفضهم لقيام الشعب الفلسطيني بقرر مصيره بنفسه ، وانهم لا يترددون في استخدام كل وسائل القمع والرشوة (خصوصا تعيين ارتاطيم ملك « الكوزليخ » ـ العملاء في الضفة الغربية ليعطوا تصريحاتهم طابع الموقف الاخلاقي الذي الذي لا يمكن الركون اليه .

ان هذا يعني بان خريطة القوى السياسية فيما يتعلق بفلسطينستان والطبقة الحاكمة الاردنية خريطة دقيقة : ان نظام الملك حسين لا يستطيع ان يدعي بعد بانه يمثل ارادة الشعب الفلسطيني (وهذا لكن حقيقة ان الملك حسين في معركته مع الفلسطينيين بأن « كسبا ») ، ولذلك فانه اثبت للاطراف الاكثر قوة في طبقة القوى الراهنة بانه النظام الذي يجب الرهان عليه ، ومثل هذا الركون لا يمكن ان يؤمن

انه من الجدير بالملاحظة ان الحديث عن « الدولة الفلسطينية » بالصورة التي يحتدم وتزدهر ارادتها .

ومن جهة اخرى فانه حتى لو قام النظام الملكي الراهن ، او النظام الانقلابي المفترض ، بعقد صفقة منفردة مع اسرائيل لانشاء ما يسمى « بالوطن الفلسطيني ـ الاردني » (او مهما كان اسمه) فان الظرف الاسرائيلي والظرف الامبريالي لن يربا في ذلك حلا ، اذ ليس المشكلة بالنسبة لهما (« تحييد » النظام الاردني) او تصفية القضية الفلسطينية .. اما « فلسطينستان الاردنية » فانها لا تقدم للظرف الاسرائيلي ـ الامبريالي مثل هذا الحل ، الا اذا جرى من خلال صفقة صلح شاملة مع كل الدول العربية او اكثريتها واقواها .

وهنا يعيدنا مرة اخرى الى رحلة الحل السلمي ورصدها .

رحلة الدولة الفلسطينية

ان تحديد جملة الامور هذه هو الذي يجعل جوابنا على السؤال المتعلق باستمرار الحديث عن « دولة فلسطينية » وشبكة الانشاء ، جوابا ممكنا من الناحية الموضوعية .

● اسرائيل و « الدولة » الفلسطينية

« .. نحن نقول ان اي شعب يعيش وراء الحدود المتفق عليها يستطيع ان يقرر ما يشاء بالصورة التي يريد ، الا اننا لا نعتقد بانه يوجد متسع لثلاث دول بين البحر المتوسط والحدود العراقية ، واذا كانت الدولة الثانية تسمى نفسها الاردن، او فلسطين ، او « الاردن ـ فلسطين » او « فلسطين ـ الاردن » فذلك ليس شغلنا .

على انه لا يمكن انشاء دولة ثالثة اذا كان لا بد من السلام في المنطقة ، خصوصا دوله تحمل في احشائها بذور حرب اخرى » .

غولدا مائير
ميراك تريبون
١ آذار ١٩٧١

شبح "الدولة" الفلسطينية

أين هو؟ ما هو؟ من سيقاومه؟ من يروّج له؟ وكيف يحدث ذلك؟

● "فلسطينستان": مشروع تخويفي يهدف الى انتزاع ولاء الجماهير لحركة المقاومة

● "الدولة الفلسطينية" اجراء مرتبط بمجمل الحل السلمي العربية ولا بدّ من محاربته عبر ذلك

واذا كانت هذه الحقيقه معروفه من الناحية السياسية ، فقد ازداد تاكدها بعد احداث ايلول ١٩٧٠ : فالرجمة الاردنية الغاشية التي لم توفر وسيلة قمعية لم تستخدمها ضد المقاومة قد ادركت اكثر من اي وقت مضى ان قوة المقاومة ليس ابدا في عدد البنادق التي تسيطر عليها ، وعدد المكاتب العلنيه التي تمارس نشاطها من خلالها .

والذي حدث هو انه ، بالرغم من الجزر العسكري الذي ارغمت عليه المقاومة في اعقاب مجزرة ايلول ، فان حجم المقاومة الحقيقي لم يتاثر بالمقدار الذي تاثر فيه وضعها العسكري .

ولذلك فان « عمليه ايلول » التي حرضت عليها اسرائيل والامبرياليه ، ونفذتها الرجعية العميلة ، كان لا بد لها ان تتبع بعمليه اخرى مكمله تستهدف ليس نزع سلاح المقاومة ، ولكن نزع ارضها الاجتماعيه والسياسية ، وانهائها كحركة تمثل الاراده الفعاله للجماهير الفلسطينية ..

وذلك لا يمكن ان يحدث بسهوله ، ولكن من خلال خطة مدروسه تستهدف تشتيت ولاء الجماهير الفلسطينية، وسحب الارض الاجتماعية التي تستند عليها المقاومة ليس فقط لتحقيق اهدافها ولكن اساسا لتبرير وجودها .

ان اللغم المرشح لتادية هذه المهمه هو « مشروع الدولة الفلسطينية » ، فمشروع من هذا النوع يفترض فيه ان ينتزع ولاء الجماهير لحركة المقاومة ، واذا استطاعت القوى المضادة ان تضمن انهاء حركة المقاومة كممثلة للاراده الفلسطينية ، فانه من السهل بعد ذلك فرض اي شكل من اشكال الاستسلام على الجماهير الفلسطينية .

ولم يكن من المصادف ان يزداد حمله الدولة الفلسطينية ضراوة بعد مجزرة ايلول ، لان هذه المجزرة قد هدأت طرفا نفسيا سلبيا من الممكن ان يستخدم حتى اقصى مدى لترسيخ « فكرة الدولة الفلسطينية » . ان اهمية هذه الفكره ليست في واقعيتها، وليست في امكان تحقيقها، ولكن في كونها مطروحه امام الجماهير الفلسطينية المغلوبة على امرها (كبديل » ، في وقت لا تستطيع فيه حركه المقاومة لاسباب ذاتية وموضوعية ان تقدم « بديلا » مباشرا وعلى المدى القصير .

وسنهدف طرح هذه الفكره على هذه الصوره الاعمان في عزل المقاومه ، وسحب ارضها الشعبية من تحتها ، فذلك هو الطريق نحو فرض حلول الاستسلام على الشعب الفلسطيني ، اذ طالما ان حركة المقاومة قادرة على ان تظل الممثله الوحيدة لارادة الشعب الفلسطيني فانه يبقى من الصعوبة بمكان فرض الاستسلام على هذا الشعب .

ولذلك فقد جرى طرح فكره « الدولة الفلسطينية » في وقت مبكر ، وكانها صارت حقيقة واقعة ، في نوع من التشوش للولاء الفلسطيني للمقاومة ، ونشتت هذا الولاء وسرقته .

وبمجرد المقارنة بين الترويج البالغ فيه لهذه الفكرة ، كحقيقة تكاد تكون واقعة ، وبين الامكانات العمليه والموضوعية لتحقيقها في الظرف الراهن ، تتضح الفجوة الكبرة، المتعمدة لتحقيق غرضين :

● اولا : سلب ولاء الجماهير للمقاومة كاحتمال للمدى البعد بعد الان في فتره جزر ، مقابل « وعد » على المدى القصير ..

● ثانيا : دفع المقاومة لخوض معركتها الحاسمة الاخيرة في وقت غير مناسب ، وذلك دفعا نحو تصفيتها جديدا قبل موعد المعركة الحقيقة مع « الحل السلمي » اجمالا .

الاستعداد للمواجهة ؟

ان هذا الكلام لا يعني ، بالطبع ، ان مشروع دولة فلسطينية عميلة ، (فلسطينستان) هو في دائرة « الاحتمال المستحيل » ، وانه ينبغي اطراح ونبذ كل استعداد لمواجهه مثل ذلك الاحتمال ، والعمل على احباطه .

لا .

انما لا بد من الانتباه الى فرق شاسع ، على صعيد التخطيط والتنفيذ ، بين مواجهة خطر لا مفر من وقوعه في دائرة الاحتمال المباشر القريب ، وبين الاستعداد (باعصاب باردة وقلوب حارة) لمواجهة خطر من الممكن وقوعه في المرحله اللاحقة .

ففي الحالة الاولى قد يؤدي خطأ التقدير الى السقوط في معركة يختار العدو مكانها ووقتها وادواتها ، وذلك كي يستطيع بعد ذلك ان يحقق برنامجه دون الشعور بانه مهدد بالمواجهة .

انه من المؤكد ان « فلسطينستان » ستكون بشكل من الاشكال ، جزءا من « الحل السلمي » في حال فرض الاستسلام السياسي على الانظمه العربية والبدء في تنفيذه ، ولذلك فان مواجهه هذا الخطر يظل مرتبطا بالمواجهة الاجماله الراهنه القائمة بين حركة التحرر الوطني العربية وبين الهجمة الامبريالية .

ان « فلسطينستان » لا يمكن ان تكون الا مشروعا مرتبطا بمجمل المعركة الراهنة الى نخوضها حركة المقاومة الفلسطينية وحركة التحرر الوطني العربية بصورة عامة ، وبالتالي فان احباط مثل هذا المشروع ، على المدى القادم ، يكمن في قدرة هذه الحركة على وقف حاله الجزر الراهنة وتعتين ارتباطها بالحركة الشعبيه العربية .

ولذلك فانه من الخطأ الكبير السقوط في الفخ المنصوب امام حركة المقاومة ، والاشتراك ـ عن قصد او غير قصد ـ في جوقه المبالغين بقرب انشاء تلك الدولة ـ الوهم : فالمبالغة هنا لها نفس المخاطر التي للتجاهل ، فاذا كانت الاولى تخدم الحمله الاعلامية المعادية التي تهدف الى اظهار المقاومة وكانها لا تمثل ارادة الجماهير الفلسطينية ، وكذلك العمل على دفع المقاومه لخوض معركة مبكرة، فان الثانية (اي التجاهل) فانها تمنع الاستعداد لمواجهه لا بد انها اتية .

ان امتحان فكرة الدولة الفلسطينية ماله يجب حدوثها بدقة وعلمية ، فثمه تيارات باتت ، منذ هذه اللحظة ، تعبر ان انشاء « فلسطينستان » هو بمثابة شر لا بد منه وبالتالي فانه لا مفر من « توفير » الغوه المقاتله الى مرحلة قادمة (!) ان مثل هذه الاتجاهات الانتهازية والمبنية على تقديرات خاطئة يجب فهمها لانها تخدم في نهاية المطاف الاساس الذي منه انطلقت حملة « الدولة الفلسطينية » .

ان المهمة الاولى امام المقاومة الان هي بعمق موقعها كممثلة لارادة الجماهير الفلسطينية ، وذلك عن طريق كشف حقيقة حمله « الدولة الفلسطينية » ، وربطها بمجمل حركة الحل السلمي .

ومثل هذا التعميق لا يمكن حدوثه الا عن طريق :

■ بناء جبهه الجرير الوطني الفلسطينه التي تضبط السيرة الثوريه لجميع الفصائل في برنامج حد ادنى وعلاقات جبهوية ..

■ تصعيد العمليات القاتله ضد العدو الاسرائيلي ، ولو ادى ذلك الى مرحلة من « البذر التكتيكي » .

■ تشكيل ضغوط سياسيه وقاتله ضد الرجعية الاردنية .

■ تعزيز العلاقات مع التنظيمات الوطنيه والتقدمية العربية ، وتنظيم هذه العلاقات وتعميقها .